

# السيد أحمد فاضل

( ١٨١٧ - ١٨٩٨ )

هو في الهند أشبه شيء بالشيخ محمد عبده في مصر بعد مفارقتة للسيد جمال الدين وعودته من نفيه، الإصلاح عندهما إصلاح العقلية بالثقيف والتهديب، والنظر إلى الدين نظرة سماحة ويسر، والاستقلال يأتي بعد ذلك تبعاً؛ فلا استقلال لجاهل ولا مخرف، إنما عماد الاستقلال العلم، العلم بالدنيا وبالدين، العلم بكل شيء أنت به المدنية الحديثة من طبيعة وكيمياء، ورياضة وفلك، ونفس واجتماع، ونظام الحكم والإدارة؛ ذلك كله إلى دين يحى القلب ولا يقيد العقل، ويفدى النفس ولا يشل التفكير، والإسلام إذا فهم على أصوله كفيل بذلك؛ فليس فيه ما يمنع الإنسان أن يصل في العلوم ونظم الدنيا إلى غايتها، بل فيه ما يبعث على ذلك ويشجعه، وفيه ما يحى القلب، ويوجه الإنسان في حياته وفي علمه وفي تفكيره إلى الخير. ثم كلاهما كان يرى أن السلطان في مصر وفي الهند في يد الإنجليز، ولم من القوة المادية من الأسلحة والذخائر في البر والبحر، ومن القوة العلمية والسياسية ما لا تستطيع الهند ومصر مقاومته. قد يستطيعون المقاومة إذا اتحدوا، ولكن كيف يكون اتحادهم مع جهلهم وضعف خلقهم، بل كيف يكون ذلك مع فساد أسرائهم - إذ ذاك - وبختمهم عن منافعهم الشخصية ولو على حساب الأمة، - قالوا: إذن فالأولى مسألة الإنجليز والتفاهم معهم، وأخذ ما نستطيع لخير الشعب منهم؛ لنفهم الإنجليز أن عليهم واجب النهضة بالشعوب التي يحكمونها عقلياً كما ينهضون بها مادياً، وأنهم مسئولون عن جهل الأمم التي يحكمونها، كما أنهم

مستولون عن قهرها، وأن العلم والثقافة وإنارة الأذهان في مصلحة المستعمر والمستعمر، ولناخذ منهم ما نستطيع أن نأخذه من طريق الإقناع والمسالمة والمصالحة، وما نأخذه نستغله في خير الشعوب وثقافتها خير استغلال، والزمن — بعد — كفيلاً بإظهار النتائج .

ثم كلاهما عانا من المتاعب ما عانى الآخر من جهتين: فمسألة المستعمرين لا ترضى — عادة — دُعاة الوطنية والاستقلال، ويرون فيها خيانة . وقد يرى بعضهم أن لا مفاوضة ولا مطالبة ولا مسالمة إلا بعد الجلاء، وكل من يطلب شيئاً دون هذا بائع لوطنه يستحق أن يهاجم ويُتقد ويؤنب — ومن جهة أخرى هناك الطبقة الجامدة من العلماء التي ترى العلوم الحديثة التي أتت بها المدنية الأجنبية مفسدة، والقول بأن قوانين الدنيا في الزراعة والاجتماع والصحة والمرض وكل شيء مبني على السبب والمسبب كفر بالقضاء والقدر، وإنكار سلطة المشايخ والأولياء والأضرحة زندقة . فهؤلاء وهؤلاء يشنون الغارة على مثل الشيخ محمد عبده والسيد أحمد خان، فيختلطون هم دعوتهم وسط هذه الأشواك الحادة . وقد يمدّ الأسماء دعاة الرجعية بوسائلهم للنيل إلى أقصى حد من المصلحين من هذا القبيل؛ لأنهم نَقَمُوا عليهم الالتجاء إلى معونة الأجنبي دونهم، ولو التجئوا إليهم — مع الأسف — مانفوعهم؛ كل ذلك كان في مصر وفي الهند، لأن طبيعة الأشياء واحدة، وقوانين الطبيعة لا تتخلف .

كانا على غير رأى السيد جمال الدين في الإنجليز والاحتلال؛ كان السيد يكره الإنجليز ويشنع عليهم ما استطاع، بحكم ما لقي منهم في الأفغان والهند ومصر وباريس، حتى لقد عاتبه بعض أصحابه يوماً وقال له: إننا نراك عادلاً في حكمك على الأشخاص والأمم، تذكر بانخير حسناتهم، وبالشر سيئاتهم، ولا نراك تفعل ذلك في الإنجليز . قال السيد: « ليس من ينكر أن الإنجليز — كأمة —



السيد أحمد خان

من أرقى الأمم ، تعرف معاني العدل ، وتعمل بها ، ولكن في بلادها ، ومع الإنجليز أنفسهم ، ثم ذكر له ما فعلته في الهند ومصر . ولخص رأيه مرة أخرى وقال : « إن الشرقيين تصرفوا في أملاكهم وأراضيهم وبلادهم تصرف السفية للبذر ، ثم قضى عليهم أن يكون الحاكم لهم هو الغرب ، والغرب — في الحقيقة — ليس من مصلحته إصلاح سيرة الشرق ولا منعه من السفه ، بل من أمانيه أن يتأدى الشرق في غيّه وإسرافه ، ليطول عهد الحجر عليه . فلما كانت عقيدة جمال الدين هذا كانت سيرته في حياته ما ذكرنا .

أما السيد أحمد خان والشيخ محمد عبده فيريان أن الإنجليز خصوم شرفاء معقولون ، يمكن التفاهم معهم ، وأخذ أشياء من أيديهم تدريجاً لمصلحة الأمة ، حتى إذا نضجت الأمة أمكنها الحصول على حقوقها كاملة ، حيث لا تستطيع أن تنال شيئاً منها مع الجهل والغفلة .

\*\*\*

هو السيد أحمد خان ابن السيد محمد متقى خان من أسرة أرستقراطية نبيلة ، رحل أجداده من بلاد العرب إلى هراة ومن هراة إلى دلهي في عهد « أكبر شاه » ، وقد ولد صاحبنا في ١٧ أكتوبر سنة ١٨١٧ وتوفي والده وهو في التاسعة عشرة من عمره ، بعد أن ثقفه ثقافة دينية على عادة أهل زمنه وبلده . وقد جرت أسرته على عادة التحرج من الاتصال بالإنجليز وخدمتهم ، ولكنه خالف أهل بيته والتحق بخدمة الحكومة أميناً للسجلات في القلم الجنائى في دلهي ، ثم عين منصفاً ( قاضياً مدنياً ) في « فاتح بور » من إقليم « أكرا » ثم منصفاً في « بجنور » Bignaur ، وإذ هو في هذا العمل في هذه المدينة اندلعت نار الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ ، وقام الهنود بحركة عنيفة ، يخربون

السكك الحديدية ويذبحون الإنجليز حينما وجدوم ، ويدمرون ما وصلت إليه أيديهم ، فكانت ثورة جائعة عنيفة أشد العنف ، وهاج الرأي العام على الإنجليز هياجاً شديداً . ولكن كان رأى السيد أحمد هادئاً متزاناً ، مخالفاً للرأى العام ، فرأى أن هذه الثورة لا تأتى بنتيجة ، وأن آخرة أمرها عودة الإنجليز إلى السيطرة ثانية من غير فائدة إلا ضحايا الطرفين ، وأن قتل الإنجليز — وخاصة المدنيين — عمل غير إنسانى . لذلك وضع خطة بذل فيها الجهد مع بعض أصدقائه لحماية الإنجليز من القتل ، وإنجاء من تصل إليه أيديهم منهم ، فنجأ على يده ويد أصدقائه كثير ، وضحى فى ذلك بالكثير من ماله وباضطهاد أقاربه ، حتى لقد طعن بعضهم بالخنجر بيد الثائرين ، وماتت أمه لهول الصدمة من وقع هذه الحوادث الأليمة . فلما هدأت الثورة عرف له الإنجليز فضله ، وحفظوا له جميله ، وكافئوه مادياً وأدبياً . ومن ذلك الحين تأكدت الصلة بينه وبينهم ، فاستخدما فيما وضع من خطة إصلاح .

ومع هذا فقد وضع رسالة فى أسباب هذه الثورة باللغة الأردنية وترجمت إلى الإنجليزية كان فيها قاضياً منصفاً ، لم يتحيز فيها للهند ولا للإنجليز ، ولم يرع فيها عداوة عدو ولا صداقة صديق ، فرد على بعض الجرائد الإنجليزية فيما ذهبت إليه من أن الثورة سببها تهيج الأفغان أو الروس للهنود ، وتدبير المؤامرات والدسائس منها ، وعد ذلك سخافة من القول لا قيمة لها ، وأن حركة الثورة حركة شعبية صادرة من صميم الشعب ، سببها أن كثيراً من المآسى يشعر بها الشعب من سنين ، ثم لاتصل إلى السلطات العليا ، ولا تعلم بها حتى تعالجها ؛ فبينما الحكومة من جانبها تتبع خطتها المألوفة من جهل سعيد بما يدور فى أذهان الشعب وما يشعر به من آلام ، إذا بالشعب من جانبه يتهم الحكومة بعلها بمآسيه وسوء القصد فى تصرفها ، كما أن الشعب يعتقد أن الحكومة تتدخل فى عقائده وشعائره الدينية ، وتؤيد — ولو

في الخفاء — حركات التبشير في البلاد ... إلى آخر ما ذكر من أسباب كان فيها صريحاً مخلصاً يقول ما يعتقد .

\*\*\*

على كل حال إنما يهمننا منه دعوته إلى الإصلاح وعمله في سبيله .  
لقد نظر فرأى أن بالهند نحو سبعين مليوناً من المسلمين فشا فيهم الفقر والجمل والبؤس والقلق ، من تعلم منهم فتعلم ديني عقيم لا يفتح نظراً ولا يبعث حياة .  
وهم خاضعون لرجال دين لا يفهمون من الدين إلا رسمه ؛ يريدون أن يخضعوا المدنية الواسعة لعقليتهم الضيقة ، ولا يعترفون بتغير زمان وتلون حياة ، وتقدم علم ، يعيشون في ركود والعالم حولهم مأجج ، يرون أن المدنية الحديثة بعملها ونظمها ووسائلها ومقاصدها مدنية كفر لا يصلح للمسلم أن يستمد منها ولا أن يتعاون مع أهلها ، وأنهم إذا فتحوا صدورهم لها أطاحت عقائدهم وأخرجتهم من دينهم . في كل بلد أو إقليم « ملأ » ، وهذا الملا أو العالم الديني يتسلط على عقول أهله ، فإذا فتح المبشرون مدارس حرّم هؤلاء العلماء على المسلمين أن يرسلوا أبناءهم إليها ، ثم لا يفتحون هم مدارس مثلها ، بل إذا فتحت الحكومة مدارس فكذلك يحرّمونها على أبناء المسلمين ؛ والهندوس يرسلون أبناءهم إلى هذه وتلك فينتفون ويصاحون للحياة ويشغلون المناصب الحكومية ، والمسلمون بمعزل عن الوظائف لأنهم في مدارسهم الدينية البدائية بمعزل عن الحياة . فالمدارس مملوءة بالنصارى والوثنيين ، وفيها القليل النادر من المسلمين ؛ وكانت نتيجة هذا أن أعمال الحكومة المتنوعة — وخصوصاً المناصب الكبرى منها — أصبحت وليس في يد المسلمين منها إلا ما ندر .

وحركات الإصلاح الديني التي قام بها بعض رجال الدين كانت دعوات

سَلْبِيَّةٌ أَوْ قَلِيلَةٌ الْقِيَمَةِ الْعَمَلِيَّةِ . فِي سَنَةِ ١٨٠٤ قَامَ الْحَاجُّ شَرِيعَةُ اللَّهِ يُؤَلِّفُ حَزْبًا إِصْلَاحِيًّا قِوَامُهُ أَنْ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ لَا تَصَحُّ فِي الْهِنْدِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ دَارَ إِسْلَامٍ ، وَلِذَلِكَ سَمَّى حَزْبَهُ « جَمَاعَةُ اللَّاجِمَةِ » ، وَمَا أَكْثَرَ مَا أَخَذَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ تَفْكِيرِهِمْ وَرِقَّتِهِمْ ، وَخِلَافِهِمْ وَجَدْلِهِمْ ، وَدَخَلَ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ مِنَ مَسْلَمِي بَنْجَابٍ .

وَجَاءَ مُصْلِحٌ آخَرٌ اسْمُهُ كَذَلِكَ : « السَّيِّدُ أَحْمَدُ » ( ١٧٨٢ — ١٨٣١ )

فَحِجَّ وَاعْتَنَقَ مَذْهَبَ ابْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ ، وَجَاءَ إِلَى الْهِنْدِ دَاعِيًا بِدَعْوَتِهِ مِنْ تَحْرِيمِ زِيَارَةِ الْأَضْرَحَةِ وَالشَّفَاعَةِ بِالْأَوْلِيَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرْنَا قَبْلُ ، وَزَادَ عَلَى ذَلِكَ دَعْوَتَهُ أَنْ الْهِنْدُ دَارُ حَرْبٍ لَا دَارَ إِسْلَامٍ ، وَأَنَّ الْجِهَادَ فِيهَا وَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَاصْطَدَمَ هُوَ وَأَتْبَاعُهُ بِالْحُكُومَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ، وَكَانَتْ خُصُومَةً ، وَكَانَتْ ضَحَايَا ، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ نَتِيجَةٌ ذَاتُ قِيَمَةٍ .

لَمْ يَعْجَبِ السَّيِّدُ أَحْمَدُ خَانَ هَذَا كُلَّهُ ، وَتَسَاءَلَ فِي حَزْمٍ : مَا عِلَّةُ هَذَا الْجَهْلِ وَضَيْقِ الْعَقْلِ وَالْفَقْرِ وَسُوءِ الْحَالِ ؟ وَأَجَابَ فِي حِمَاةٍ : إِنَّهُ التَّرْبِيَّةُ . وَمِنْ ذَلِكَ الْحِينِ ابْتَدَأَ يَضَعُ مِنْهَجَ التَّرْبِيَّةِ الَّتِي يَرِيدُهَا . وَصَادَفَ ذَلِكَ أَنْ ثَوْرَةَ سَنَةِ ١٨٥٧ كَشَفَتْ لِعُقْلَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْهِنْدِ حَالَهُمْ وَوَجُوبَ تَغْيِيرِ مَوْقِفِهِمْ وَشُعُورِهِمْ بِتَخْلَافِهِمْ عَنِ الطَّوَائِفِ الْآخَرَى ، فَتَنَاقَشَ تَفْكِيرُ « السَّيِّدِ أَحْمَدِ » وَاسْتَعْدَادُ الرَّأْيِ الْعَامِّ الْمُنْتَوِّرِ ، فَانْتَجَى هَذَا التَّنَاقُشُ حَرَكَةَ إِصْلَاحٍ تُعَدُّ نَقْطَةً تَحْوِيلًا فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْهِنْدِ .

قَالَ لِقَوْمِهِ يَوْمًا : « انظُرُوا إِلَى إِنْجِلْتْرَا ، لَقَدْ كَانَتْ ثَرَوَتُهَا تَتَمَشَّى يَوْمًا فَيَوْمًا مَعَ تَرْبِيَّتِهَا ، كُلَّمَا زَادَتْ تَرْبِيَّتُهَا زَادَتْ ثَرَوَتُهَا ، وَقَدْ كَانَتْ مِنْذُ قَرْنٍ وَأَمَامَهَا مِنَ الْعُقْبَاتِ وَالصَّعَابِ الَّتِي تَعُوقُ التَّرْبِيَّةَ أَكْثَرَ مَا عِنْدَنَا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا إِذْ ذَاكَ سَكَّكَ حَدِيدِيَّةٌ وَلَا آلَاتٌ مِيكَانِيكِيَّةٌ لِلطَّبَاعَةِ وَلَا نَحْوُ هَذَا ، إِنَّمَا كَانَ لَهَا سَعَةٌ نَظَرٌ وَقُوَّةٌ إِرَادَةٌ » .

« لَوْ أَنَّ الْهِنْدَ سَنَةَ ١٨٥٦ كَانَتْ تَعْرِفُ الْعَالَمَ وَتَعْرِفُ قُوَّتَهَا وَقُوَّةَ خَصْمِهَا

من الإنجليز ، وترن الأمور بميزان صحيح وتدرک نتائج الأمور ، ما حدثت الحوادث الأليمة التي حدثت سنة ١٨٥٧ — ألا إن الجهل سبب لكل شر .

وأول ما بدأ به خطته في التربية إنشاؤه جمعية أدبية علمية في عليكره — حيث كان قاضياً بها سنة ١٨٦١ — كان الغرض منها نشر الآراء الحديثة في التاريخ والاقتصاد والعلوم ، وترجمة أهم الكتب الإنجليزية في هذه الموضوعات إلى اللغة الأردية . وقد كان يرى أن تعلم هذه العلوم باللغة الإنجليزية لا يكفي إلا في تثقيف عدد قليل لا يُجْزَى<sup>(١)</sup> ، إنما الذي يفيد فائدة كبرى نقل هذه العلوم إلى لغة البلاد حتى يشترك في تفهمها والاستفادة منها أكبر عدد ممكن ، ولذلك كانت خطته التي بدأ بها وسار عليها ، نقل هذه الكتب الهامة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الأردية ، ولم يمنعه إعجابه بالإنجليز ولقنهم وثقافتهم من أن يكون صُلْباً حازماً شديداً في طلبه نقل الكتب الإنجليزية للشعب ، لا تقل الشعب للغة الإنجليزية .

ولكن سرعان ما هاج عليه الرجعيون والتمزقون من رجال الدين ، يتهمونه بإفساد العقول وإفساد الدين وإفساد الوطنية ، واشتبك في حرب عوانٍ معهم انتهت بانتصاره بوضعه الحجر الأساسى لكلية فيكتوريا بفازي بور .

وحدث حادث كان له أكبر الأثر في إصلاحه ، ذلك أنه في سنة ١٧٦٩ ، وهو في نحو الثانية والخمسين من عمره ، تقرر إرسال ابنه « محمود » إلى إنجلترا — عضو بعثة — ، فاتهمها « السيد أحمد » فرصة وسافر معه ؛ وحدث له على السفينة طرائف رويت عنه ، من أحاديث في الدين تحدّث بها مع أصدقائه من الإنجليز تدل على غيرته على الإسلام مع سعة عقل ، وابتهاج حين مروره على شاطئ جزيرة العرب لأنها مبعث النبي .

(١) يجزى : يكنى .

نزل إنجلترا وقابل كثيراً من عظمائها ، منهم توماس كارليل ، وقد حدثه « السيد » طويلاً في محمد ﷺ ، ولعله كان لذلك أثر محمود في كتابة « كارليل » الفصل البديع عن محمد البطل في كتابه « الأبطال » ، وأخذ « السيد » يدرس نظماً التربية في إنجلترا ، ولقت نظره تربية الإنجليز للشعب أكثر مما لقت نظره تربيتهم للخاصة من المعلمين . لقد دون إعجابه بخدمة المنزل تقرأ وتكتب ، وبربته المنزل لها رأى في السياسة العامة . وبالخودى يقرأ الجريدة ويحتفظ بها ليم قراتها عند انتظار راكب ، ونادى إذ ذاك بفكرته المتغلبة على ذهنه قائلاً : « إن الذين يريدون إصلاح الهند الحقيقي يجب أن يجعلوا نصب أعينهم نقل العلوم والفنون والآداب الأوربية إلى لغة البلاد الأصلية ، وأحب أن يكتب هذا الرأى بأحرف كبيرة جداً على جبال الهملايا لتذكره الأجيال القادمة . إن تقدم الغربيين إنما جاء من أنهم عالجوا الآداب والعلوم بلغتهم ، ولو كانت العلوم والفنون تعلم في إنجلترا باللغة اللاتينية أو اليونانية أو العربية أو الفارسية لظلوا جاهلين جهل الهند ، فإلم نهضم العلوم والفنون وتمثلها بلغتنا فسنظل في حالتنا السيئة » .

ولعل قارىء هذا يطفر ذهنه — إذا قرأ هذا النداء — إلى حالة البلاد العربية ، ويقول كما قال « السيد أحمد » : ما لم تتوحد اللغة العربية والعامية في الأم العربية وتنقل العلوم والفنون إلى لغة الناس التي يتكلمون بها في بيوتهم وشوارعهم ومعاملاتهم وسمرهم ، فلا أمل في إصلاح حقيقى . ورحم الله أستاذى « على بك فوزى » فقد زرتة في الآستانة وجلست معه جلسات طويلة ، أستفسر فيها عن ثورة تركيا ونتائجها ومحاسنها ومساوئها ، فقال لى مرة : « حبذا لو تعلمت التركية لأن أجبها رفيع المقام ، ولكن لتروا كيف استخدم الأتراك لغتهم وآدابهم لإصلاح عقولهم وشؤونهم » . وعقب على ذلك فقال : « لا أمل في إصلاح مصر مادام هناك لغة العلم ، ولغة للكلام ، فإما أن ترقى لغة الكلام ، وإما أن تنحط

لغة العلم حتى يتحدا ، وحينئذ فقط يكون التفكير الصحيح والرقى الشعبي .  
وكنت مرة أقدم أديباً مصرياً كبيراً لشرقى كبير ، فسألنى سؤالاً غريباً :  
هل هو يكتب للخاصة أو للعامة ؟ فقلت : للخاصة ؟ قال : ومن من الأدباء  
يكتب للشعب ؟ قلت : لا أحد ، قال : واأسفاه !

واهتم « السيد أحمد » بدراسة نظام التربية فى المدارس الشعبية وفى الجامعات  
الإنجليزية ، وكان مما قاله : « إن الطفل فى مدارس إنجلترا يتربى ويتثقف ،  
وأما فى مدارس الهند فيتعلم ، وشتان بين التربية والتعليم ، وإن الشاب  
فى الجامعات الهندية يفقد أخلاقه بسكناه فى أوساط المدن مع المفريات المتعددة ،  
كما أنه ليس فى هذه الجامعات عناية بالأخلاق والآداب والدين ، وأسائنتها  
ومدرسوها يعتقدون أن واجباتهم تنهى بانتهاء دروسهم ؛ وآمال الشبان ومطامحهم  
محصورة فى وظائف حكومية ، من غير تفكير فى واجب لأنفسهم ولا لأمتهم » .  
يجب تغيير كل ذلك ، ووضع منهج لمسلمى الهند غير المنهج الذى  
يسرون عليه .

عاد « السيد أحمد » من إنجلترا وهو عاقد العزم على إصلاح حال المسلمين  
فى الهند عقلاً ودينياً ولغة وخلقاً واجتماعاً ، سواء فى ذلك خاصتهم وعامتهم ،  
مصمم على أن يغزو الجهل والجور بكل ما يستطيع من قوة ، وأن يحمل المسلمين  
بكل الوسائل على أن يتقبلوا المدنية الحديثة فى علومها وفنونها قبولاً حسناً ،  
ويستخدموها فى ترقية حياتهم ؛ وأن يبذل الجهد فى التوفيق بين الإسلام  
والمدنية ، فالإسلام فى جوهره وأصله معقول واسع الصدر لأحكام العقل  
غير مناهض لما يثبتته العلم ، فإذا نُقِيَ مما لحقه ، ولبس منه ، أمكن أن يُقبل المسلمون  
على العلم الحديث من غير حرج .

جمل من أول خططه بعد عودته أن ينشئ في الهند جامعة تكون للمسلمين  
كأكسفورد وكبريدج في إنجلترا، تُربى الخاصة، ثم هم يرثون العامة؛ وما زال  
يُكثُر ويسعى ويجمع المال ويكافح العقبات توضع في سبيله، وأخيراً فاز بإنشاء  
كلية عليكرة المشهورة، وحدد لها أغراضاً ثلاثة:

١ — أن تعلم المسلمين الثقافة الغربية والشرقية في غير تعصب ولا جهود.

٢ — أن يُعنى فيها بحياة الطلبة الاجتماعية، فيجدوا فيها سكناً يقيمهم شرور

المدن ومفاسدها، فيطمئن الآباء — حين يرسلون أبناءهم إليها — إلى أنهم في بيئة  
صالحة لخلقهم، مربية لآدابهم.

٣ — أن يُعنى في نظام الكلية بتربية العقل وتربية البدن وتهذيب الخلق

معاً، وبعبارة أخرى يكون الغرض منها « التربية » لا التعليم فقط.

وتمّ بناؤها واستقبلت طلبتها تعلمهم على المنهج الذي اختطه، ونجحت

في خلق جيل من المسلمين جديد مثقف ثقافة واسعة، مع سعة في العقل وساحة

في الدين؛ وانتشر خيرٌ مجوها في أقطار الهند يحملون رسالة جامعتهم ويضيئون

ما حولهم، وأصبحت كلمة « عليكرة » لاتدل فقط على كلية أو جامعة، وإنما تدل

أيضاً على نوع من العقلية الراقية، والصيغة الخلقية والاجتماعية الخاصة.

لقد أخذ الوطنيون المسلمون على خيرٍ مجي هذه الجامعة وطلبتها أنهم

لا يشتركون في الحياة السياسية مع فضلهم، وسعة عقلهم وغزارة علمهم، حتى إنهم

لا يُضربون يوم تُضرب الجامعات الإسلامية لغرض سياسي، ولكن هذه الصيغة

هي التي صيغ بها « السيد أحمد » طلبته، إقبالٌ على العلم وبعُدٌ عن السياسة.

فلما فرغ من هذه الجامعة أخذ يعمل في اتجاه آخر، فأنشأ مجلة دورية سماها

« تهذيب الأخلاق » عالج فيها المشاكل الاجتماعية والدينية في جرأة وصراحة،

وأخذ يفسر القرآن، ويدعو إلى أن القرآن — إذا فهم فهمًا صحيحًا — اتفق

مع العقل ، وأن النظر الصحيح فيه يوجب الاعتماد على روحه أكثر من الاعتماد على حرفيته ، وأنه يجب أن يفسر على ضوء العقل والضمير .

وتطرق أكثر من ذلك ، فقال إن الوحي كان باللفظ دون اللفظ ، ذاهباً في ذلك مذهب بعض علماء المسلمين المتقدمين الذين حكى قولهم الشيوطي في الإتيان ، إذ قال : « وذكر بعضهم أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة ، وأنه صلى الله عليه وسلم علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب » ، وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك » (١) .

إذ ذلك هاج عليه كثير من رجال الدين ، وهيجوا عليه العامة ، وتعرضت حياته للخطر ، وأراد أحدهم أن يقطعنه مرة بمنجبر فنجأ منه بأعجوبة ، ومع هذا ظل ثابتاً جريشاً في دعوته كما هو لم يتزحزح ، ولم يداج ولم يُمار (٢) ، بل ربما كان بعد ذلك أقوى وأصرح فيما يقول وما ينشر ، لا يعبأ بنقد ولا تهديد بقتل ، ولا بأى ضرب من ضروب التخويف .

وكما كانت ناحيته الدينية جريشة خطيرة كذلك كانت ناحيته السياسية ، فكان يرى أن الغرض الذي يجب أن يرمى إليه السياسي الهندي هو أن تكون الهند كلها أمة واحدة ، وأن الإسلام والهندوكية والنصرانية يجب أن تكون عقائد دينية في نفوس معتنقها فقط . وهذه العقائد كلها يجب ألا تؤثر في الوطنية ؛ فيجب أن يكون لكل طائفة عقيدتها الخاصة بها ، أما وطنيتها فتكون عامة تشترك فيها كل الطوائف . أما النزاع الطائفي الديني ، والنزعة إلى تقسيم الهند على حسب الأديان ونحو ذلك ، فكلها أفكار باطلة ، وليس يؤدي إلى الاستقلال الحق إلا حصر الدين في العقيدة ، وتعميم الشعور بالوطنية بين كل الأفراد وفي كل الملل ،

(١) وردت هذه العبارة في الإتيان ص ٥٤ من الجزء الأول بالمطبعة الكستلية .

(٢) يداجي : يندارى . يمارى : يجادل وينازع .

وقال : « في قطر كالمند تنقسم الطبقات ، وتتوزع النزعات الدينية الحادة ، ولم تنتشر فيه التربية الصحيحة التي تمد الناس كلهم سواء في الحقوق والواجبات ، أرى ، بل أعتقد ، أن الانتخاب والتمثيل في شتى المجالس ضرره أكبر من نفعه » ، ولهذا رفض أن يشترك في المؤتمرات السياسية والأحزاب على اختلاف أوتها ، فأغضب رجال السياسة كما أغضب رجال الدين ، ولم يعبأ بهؤلاء ولا هؤلاء . ووجه كل همه في أحب الأعمال إليه ، من اشتراك في المجلس الأعلى للتعليم ، والمجلس الأعلى للخدمة الاجتماعية ، والإشراف على سير كلية عليكره .

ثم كانت له فكرة عظيمة نافعة ، وهي أن يجمع مؤتمراً كل عام يجتمع فيه قادة المسلمين من الأقاليم الهندية المختلفة ، كل عام في مدينة ، يتقون فيه الخطب والمحاضرات عن الشؤون الإسلامية وأمراض المسلمين وعلاجها ، ويصدرون القرارات التي يرونها نافعة في ذلك . وكان الغرض الذي يرمى إليه « السيد » منه بث روح الائتلاف بين المسلمين في البلاد الهندية ، وتبادل الآراء في خير الوسائل لترقيتهم ، والتعاون على الأعمال القيّمة من إنشاء المدارس أو النهوض بها أو نحو ذلك . وقد نفذت الفكرة ونجح المشروع ، ورأس « السيد » المؤتمر خمس سنوات قبل أن يتوفاه الله ، ثم استمر يجتمع بعد حياته برياسة بعض أصحابه وأتباعه . لقد سيطرت روحه على المؤتمر في حياته وبعد مماته ، وهي روح تدعو إلى المهجوم على المدينة الغربية ، وأخذ كل شيء حسن فيها ، وخصوصاً العلوم والآداب « إن النور لليوم يأتي من الغرب بعد أن كان يشرق من الشرق ، فيجب أن نأخذ من أوربة علومها ومدنيتها ، ونسير مع الزمان في مضمار الحياة المصرية ، وذلك لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم ، إنما يفقد ذلك الجهل لا العلم » « إن التعليم كان في الزمن الماضي دينياً محضاً لا يعبأ بالدنيا وما فيها ، وقد تطرف في الأولى وأخلّ بالثانية ، فحبذا الجمع بين الدين والدنيا » . « إن العلم

اتخذ شكلاً جديداً ، فلم تعد طبيعيات أرسطو ، ولا نظريات ابن سينا ، ولا جَبْر الخِيَتَام ، ولا كيمياء جابر بكافية ، وهي لا تصلح للدراسة إلا من الناحية التاريخية .

واهتم المؤتمر بالتربية وشؤونها ، ينتقد التعليم ومناهجه ويقترح الإصلاح ، ويضع نُصَبَ عينه كلية عليكرة « حتى تصل إلى درجة تساعد على ترقية النَّشْرء وتهذيبه ، وحتى تصل إلى درجة تكون فيها منبع العلوم ومحط الرُّحال للطلبة من جميع الأقطار الإسلامية ؛ وليس من البعيد عند ذلك أن ينبُعَ فيها أمثال ابن سينا وابن رُشد وغيرها من العلماء السابقين ينشأون في مهد العلوم الحديثة ، وينحشون فيها وينهضون بها ، فإن هؤلاء الناشئين بمساعدة المباحث والتجارب الكيمياوية والطبيعية والفنون العصرية والقواعد الطبيعية يمدون لنا سالف مجدنا القديم ، فيكون فيهم ابنُ موسى جديد يخترع آلات جديدة ، وطُوبى آخر يكتشف كواكب ويحدد دوائرها ويضع كتباً في علم الهيئة الحديثة وهكذا .

« والذي نريده أن ينشأ أولادنا في عالم من الحرية بعيدين عن المضارِّ والأوهام الفاسدة والعادات السخيفة التي تُحيط بهم من كل جانب . »

عليكم بالعلم ، فإذا شئتم أن تتعلموا وتستفيدوا فانسلكوا من كثير من عاداتكم القديمة وأخلاقكم الوَخِيمة ، واهتدوا بنور العلم في طريق حياتكم التي تسرون فيها .

« يجب علينا أن نشارك الأمم الغربية في معارفهم وأن نزاحمهم في مساعيهم بالمناكب والأقدام في كل خطوة يخطونها لكسب علم أو اختراع عمل ، ولا مُنْقذ لنا من بَرَاثِنِ<sup>(١)</sup> الفقر ومخالب الجهل إلا اقتطافُ علومهم وإدخالُ مدنيّتهم

(١) البراثين : هي لسباع والطير بمنزلة الأصابع للانسان .

ليكون هناك شيء من التكافؤ بيننا وبينهم ، حيث لا حافظ لنا من الهلاك في هذا المزدحم الشديد إلا التكافؤ » .

هذه أقوال من أقوال أصحابه وأتباعه الذين حملوا الراية بعده في المؤتمر الهندي الإسلامي ، وكلها من روحه ومستمدة من تعاليمه<sup>(١)</sup> .

لقد ظل حياته يكافح في سبيل المسلمين في الهند كفاحاً شديداً ، وهو صابر على رمية بأشنع التهم من كفر وإلحاد وفقدانِ وطنية ، وأنه آلة إنجليزية ، شجاع في مقابلة كل ما يقف في سبيله يحتاجه اجتياحاً ، يرى أن المسلمين مرضى لا يشعرون بمرضهم إلا إذا ذاقوا طعم العافية ؛ فقراء لا يشعرون بفقرهم وسوء مسكنهم وغذائهم إلا إذا أكلوا الطعام الهنيئ ، وناموا على الفراش الوثير<sup>(٢)</sup> في المسكن الفسيح ، فعيل على أن يذوقوا العافية والغنى ليدركوا ما كانوا عليه من مرض وقر ؛ وكذلك كان .

فقد رأى مسلمو الهند ناشئة جديدة عاقلة مفكرة مهذبة تصلح للحياة ، ورأوا كلية عليكرة تُنتج في البلاد حركة فكرية بديعة ، وتؤلف الكتب القيمة في أسلوب جديد قويم ، وأخذت الحياة تدب بين المسلمين بعد خمودها ، فأمنوا إذ ذاك بأن « السيد أحمد » مصدر نعمة وبركة ، لا كارثة وقمة ؛ وإن اختلفوا معه في بعض آرائه .

ثم كانت له جولة إصلاح عظيمة في اللغة الاردية ؛ لقد كانت هذه اللغة قبله كاللغة المريية في عهد الظلام : عشق وغرام ومدح ، وأسلوب مزرکش الظاهر فارغ الباطن ، فنقلها إلى آفاق واسعة ، وأصبح من موضوعاتها السياسة والاجتماع

(١) انظر طائفة كبيرة من خطب المؤتمر نشرت في جريدة المؤيد سنة ١٩٠١

وسنة ١٩٠٢

(٢) الوثير : اللين

والأخلاق والدين والتاريخ والأدب في أسلوب متين فيه القوة والسلاسة والصفاء والسعة ، غزير المعنى ، خال من التصنع .

لقد بدأ « السيد » حياته في اللغة الأردنية شاعراً . فكان شاعراً عادياً لم يَلْتَمِثِ النظر إليه ، فلما اتجه إلى النثر ملك ناصيته وفتح فيه فتحاً مبیناً ، وبدأ ذلك في جريدته التي أنشأها وسماها « سيد الأخبار » ؛ فلما أنشأ بعدُ جريدة « تهذيب الأخلاق » بلغ في ذلك الغاية . واتمَّ به كثير من الكتاب وأصحاب الجرائد فعالجوا بهذه اللغة موضوعات لم تكن تعالج فيها من قبل ، وبذلك أخذ الأدب الأردني يشق طريقه إلى التقدم ؛ يقول هو في ذلك :

« لم آلُ جُهْداً<sup>(١)</sup> في ترقية العلم والأدب باللغة الأردنية على صفحات جرائدي المتواضعة ، واتخذت في ذلك أسلوباً يجمع بين السهولة والجزالة لا تعقيد فيه ولا تكلف ، تجنبت فيه الألفاظ الزنانة ، والاستعارات والكنايات الوهمية التي تنحصر في الشكل ولا تتصل بالقلب ، وجهدتُ في تشويق القارئ إلى ما أكتب فيه ، ونقل مشاعري وعواطفني إلى مشاعره وعواطفه » .

وتعددت موضوعات كتاباته ، فطرق كل موضوع ، وعالجه معالجة من يُلقى عليه ضوءاً كاملاً لا يتركه حتى يكون واضحاً جلياً في جميع جوانبه .

ثم وجه الناس إلى العناية بهذه اللغة وأدبها ، ونقل كثيراً من خير الآداب الأجنبية إليها . وكان له رأي في الترجمة إلى اللغة الأردنية بديع ، وهو عدم التقيد بالحرفية في الترجمة ، ويرى أن هذا أسلوب وإهٍ ضعيف ؛ وإنما الواجب أخذ الأفكار وعرضها عرضاً جديداً بطريقة تتفق وذوق المنسود وتلائم أفكارهم . ولم تكن اللغة الأردنية تشتمل على مصطلحات علمية ، فجَدَّ في صياغة اللغة صياغة تناسب مع العلم ، ووضع ما استطاع من المصطلحات ؛ وسار على هذا النهج طلبته .

(١) لم آل : لم أقصر أو أبطل .

قال الأستاذ شبلي النعماني — عالم الهند العظيم — : « طالما كان النزاع بيني وبين السيد أحمد شديداً في آرائه الدينية ، وطالما فنّدت آراءه ، ومع هذا لا أنكر فضل أسلوبه العالي الذي استخدمه في شرحه أفكاره ، فكان أسلوباً رائعاً منقطع النظير ، مملوفاً بالفكاهة الحلوة ، والتنادر الظريف .

حدث مرة أن « مولوى على بنحش » نقدتُ مُرّاً ، ثم ذهب إلى مكة بقصد الحج وأخذ فتوى من علماء مكة بتكفيره ، فكتب السيد أحمد في « تهذيب الأخلاق » :

« ما أعجب إلحادى . قد جعل منى كافراً وجعل منه حاجاً مؤمناً ! إني لفي شوق شديد لأن أرى فتواه . إنه كما قال الأول : إذا خرب بيتى بيت الأوثان ، قام على أنقاضه بيت الإيمان . إن إلحادى كالأمطار ، تُخرج أحسن الورود في البستان ، وأحسن الكلال<sup>(١)</sup> في الوديان .

ولما صدر الأمر بإغلاق جريدة « تهذيب الأخلاق » كتب في آخر عدد منها : « طالما طرقتُ باب النيام ليستيقظوا ، فإن فعلوا فذلك ما أبغى ؛ وإن تحبّطوا عند انتباههم وترنّحوا يميناً ويسرة فرحلة لا تستوجب الرضا ، ولكنها مع ذلك تستوجب الأمل في يقظة المستقبل ، وليتها تكون .

وعندما ترى الأم طفلها مريضاً تلحّ عليه أن يشرب الدواء المرّ ، وهو يلحّ : دعيني يا أماء قليلاً فساشر به بنفسى .

وأنا كذلك سوف أطرق باب النيام دائماً ليستيقظوا ، وسأصبح بالأطفال المراضى : اشربوا اشربوا ، حتى يتجرّعوا .

لا أكل ولا أملّ .

وظل كذلك يدق الباب . ويلحّ في شرب الدواء ، حتى أدرك الناس أخيراً

(١) الكلال : المشب .

جدًا أنه قام بعمل جليل في لغة قومه وعقليتهم وتعليمهم وتربيتهم ، مهما عابوه في بعض تعاليمه الدينية ، وبُعده عن التدخل في السياسة القومية .

فلما زار البنجاب في آخر حياته استُقبل استقبال الملوك الظافرين ، والغزاة الفاتحين ، بل المصلحين الناجحين ؛ وأنساه نعيمُ الآخرة شقاء الأولى .

ولما بلغ الحادية والثمانين من العمر أسلم روحه لخالقه ، فبكاه الأوروبيون والهندوس والمسلمون على اختلاف عقائدهم وطبقاتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية ، وأشد ما بكوه من أجله ، شجاعته التي لا تُحَدُّ في تنفيذ خطته ، وصراحته البالغة في الجهر برأيه ، وعدم اعتداده بنقد الناقدين على اختلاف ألوانهم ، وإصراره على ألا يسمع إلا لصوت ضميره ؛ ينقد الإنجليز في ترفهم ، والمواطنين في تخلفهم ، ورجال الدين في جهودهم ، ورجال السياسة في تخيلهم ، على حد سواء ؛ ويبيحونه أكثر من ذلك لأنه مصلح عملي ، لا يكتفى بالنظريات والمبادئ يثيرها ، ثم يهدأ ضميره لأنه قد أدى واجبه ، بل لا يزال يسعى ويكدح وراء مبادئه حتى يخرجها في بناء وفي طلبة وفي معمل وفي مؤتمر وفي مجلة وفي درس ؛ وهي ميزة نَدَرَ أن تكون في المصلحين ، ولذلك كانت نتيجته في إصلاحه عمليةً كسيرة ؛ فلورأيتَ مسلمي الهند أيام سَلَّهم ، ورأيتهم أيام تسَلَّهم لوجدتهم قد ارتفعوا درجاتٍ في العلم ، وفي الفكر ، وفي الخلق ، وفي اللغة ، وفي الصلاحية للحياة ؛ حتى لو قلنا : إن تاريخ المسلمين في الهند قد تمحور واتخذ اتجاهًا جديدًا في حياته وبجياته ، لم نعدُ الصواب .

ثم نرى في بعض المصلحين عيبًا كبيرًا ؛ وهو أنهم لا يربون من يحمل علمهم ، ويكمل خطتهم ، وكثيراً ما يكون سبب ذلك اعتدادهم بأنفسهم مع شخصيتهم القوية التي لا تسمح لشخصية عظيمة أخرى أن تظهر بجانبهم ، فتلتف حولهم الشخصيات الضعيفة التي تتقن الملق والنفاق ، وتغذّي بأقوالها وأعمالها

عظمتهم واعتدادهم بأنفسهم ، وتنفر منهم الشخصيات القوية لأنها ترى في نفسها  
نِذاً أو شبه نِذٍ ، لأن كرامتها تأبى أن تنزل عن رأيها لرأيهم ، أو تتصنع النفاق  
لتقرب منهم ، فإذا مات مثل هؤلاء مات إصلاحهم إلا من الروس أو ثنايا كتب  
التاريخ — ولم يكن « السيد أحمد » من هذا الطراز ، فهو قوى جبار في اعتناقه  
آراءه ومبادئه والجهر بها والعمل عليها ، ولكنه سمح النفس مع الناقد الشريف ،  
بأذر الحب للنفوس حوله حتى تنمو وتقوى ، مشجعاً لاتباعه وتلاميذه أن يروا  
رأيهم ، ويستعملوا حقهم في صراحتهم ، كما يستعمل حقه في صراخته .  
ولذلك كان حوله وبعده من يكمل خطته ، ويسلك منهجه ، ويحمل رايته ،  
ويُصلح ما أخذ عليه ؛ من مثل سراج علي ، والسيد أمير علي .